عود الضمير
هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن
عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره.
أواخِر سورة البقرة نموذجا [من الآية 170 إلى الآية 280]-

د. جمال بوكو.
أستاذ مساعد قسم - ب-
جامعة الجزائر1/كلية العلوم الإسلامية.
البريد الاكتروني: d.boukou@univ-alger.dz
djamelmaxi@gmail.com

ملخص البحث:

-من مسائل الدراسات القرآنية التي لها مِن الأهمية بمكانٍ، مسائل عود الضمير في القرآن الكريم، ولاسيما منها « هاء الضمير الغائب»، فقد اعتنى المفسِّرون وأهل اللغة بمسائله، وأتوا بشواهد قرآنية وما أُثر عن العرب من أقوالهم و أشعارهم.

- ومعرفة عود الضمير للآيات القرآنية يحتاج إلى فكرٍ وتحقيقٍ وتدقيقٍ، خاصةً إذا كان عود الضمير يعود إلى احتمالات كثيرةٍ، كأن يعود إلى مُقدَّرٍ أومحذوفٍ أو إلى أبعد مذكورٍ، فاختلاف تحديد عود الضمير في الآية الواحدة مِن أحد أسباب اختلاف المفسرين، فمنهم مَن يُعيد الضمير إلى أقرب مذكورٍ، ومنهم من يعيده إلى أبعد مذكورٍ، و الآخَر قد يعيده إلى محذوفٍ، فكانت هذه الدراسة في بيان أهمية «هاء الضمير الغائب» في القرآن الكريم.

- اهتم المفسِّرون بمسائل عود الضمير في تفاسيرهم كابن جرير الطبري رحمه الله في كتابه الماتع «جامع البيان في تأويل القرآن»، إذ تطرق إلى موضوع عود الضمير في مواضع متعددة في تفسيره، ودراستنا هذه مبنيةٌ على التتبع

والاستقراء لـ«هاء» الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن الكريم عند الإمام ابن جرير الطبري من خلال تفسيره «**جامع البيان في تأويل القرآن**»، مُركِّزا على أواخر سورة البقرة، مع بيان أقوال أهل العلم ثم مناقشتها على وجه الاختصار، مُبرزا رأي الباحث في كل مسألة من مسائل عود الضمير.

مفاتيح البحث: هاء الضمير الغائب و أثرها / توجيه معاني القرآن / عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره / أواخِر سورة البقرة نموذجا.

المقدمة:

لقد اهتم العلماء على وجه العموم والمفسِّرون بوجه الخصوص بالقرآن الكريم حفظا ودراسة من الناحية البلاغية، والنحوية، والأحكام الشرعية وغيرها. وموضوعنا «هاء الضمير الغائب» وأثرها في توجيه المعنى لا يقل أهمية وشأنا مما ذُكر، لأنَّ معنى الآية يختلف باختلاف تحديد عود الضمير، إن كان الضمير يعود إلى أكثر مِن عائد.

إذن فما توجيه «هاء الضمير الغائب» في تفسير ابن جرير الطبري؟، وهل يُرجّح بقواعد عود الضمير؟، وهل يذكر خلاف العلماء؟ أم يقتصر على ما يرجحه ويراه صوابا؟.

تعريف الضمير لغة:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أن الضمير أصله من: «ضَمَرَ: «الضَّاد» و «المِيمُ» و «الرَّاءُ» أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على دقَّةٍ في الشَّيء، والآخر يَدلُّ علَى غَيْبَةٍ وتَستُّرٍ»[1].

ويأتي الضمير بمعنى الهُزال تقول: «تضَمَّرَ وجهُه أي انضَمَّت جلدته من الهُزال»[2]، وسُمي الضمير بذلك لقلة حروفه.

---

(1) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج3/ 371، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م.

(2) العين، للخليل بن أحمد، تحقيق: مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ج7/ 42، دار ومكتبة الهلال.

والضَّمِيرُ: العِنبُ الذابلُ[1].

فنجد أن الضمير يدل على غيبة وتستر وهزال وكلها تؤدي معنى الضمير.

تعريف الضمير اصطلاحا:

هناك عدة تعريفات للضمير فمن أجودها نجد تعريف السهيلي فقال رحمه الله: «سمّيت تلك اللفظة اسماً مضمراً، لأنها عبارة عن الاسم الذي أضمر استغناءً عن لفظه الظاهر»[2].

وهنا ينبغي أن ندكر أن الضمير لابد له من عائدٍ يعود إليه حتى يزول الإشكال، وهذا العائد إما أن يكون مذكورا أو مُقدَّرا بحسب ما يقتضيه السياق.

- نماذج تطبيقية لـ هاء الضمير الغائب لأواخر سورة البقرة:

1/ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾البقرة- 170.

موضع الشاهد: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾

ذكر الطبري اختلاف العلماء في تحديد عود الضمير ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ فقال رحمه الله: « وفي هذه الآية[3] وجهان من التأويل: أحدهما: أن تكون «الهاء والميم» من قوله: ﴿وإذا قيلَ لهم﴾ عائدة على ﴿ مَنْ﴾ في قوله: ﴿ومنَ الناس مَنْ يَتخذُ من دون الله أندادًا﴾، فيكون معنى الكلام: ومن الناس مَنْ يَتخذُ من دُون الله أندادًا، وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عَليه آباءنا. والآخر: أن تكون «الهاء والميم» اللتان

(1) لسان العرب، لابن منظور، ج4 /491، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ

(2) نتائج الفكر في النحو، لأبي القاسم السُّهيلي، ص170، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

(3) قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170].

في قوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ مِن ذكر ﴿الناس﴾ الذين في قوله: ﴿يا أيها الناسُ كلوا مما في الأرض حَلالا طيبًا﴾، فيكون ذلك انصرافًا من الخطاب إلى الخبر عن الغائب، كما في قوله تعالى ذكره: ﴿.....حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾يونس22-»[1].

ثم رجح الطبري عود الضمير ﴿لَهُمُ﴾ إلى الناس الذين ذكرهم الله في قوله:﴿ يا أيها الناسُ كلوا مما في الأرض حَلالا طيبًا﴾ فقال رحمه الله:« وأشبه عندي بالصواب وأولى بتأويل الآية أن تكون «الهاء والميم» في قوله: ﴿لَهُمُ﴾، من ذكر ﴿الناس﴾، وأن يكون ذلك رجوعًا من الخطاب إلى الخبرعن الغائب، لأن ذلك عَقيب قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض﴾ فلأنْ يكون خبرًا عنهم، أَولى من أن يكون خبرًا عن الذين أخبرَ أنّ منهم ﴿مَنْ يَتخذ من دُون الله أندادًا﴾، مع ما بينهما من الآيات، وانقطاع قَصَصهم بقصة مُستأنفة غيرها»[2].

نلاحظ أن الطبري رحمه الله أعاد الضمير ﴿لَهُمُ﴾ إلى ﴿الناس﴾ لقربه منها، فيكون المعنى: وإذا قيل للناس اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أَلفَينَا عَلَيهِ آبَاءَنَا.

ذكر أبوحيان اختلاف العلماء في تعيين عائد الضمير ﴿لَهُمُ﴾ ورجح احتمال عود الضمير إلى كفار العرب معتمِدا على قرينة السياق لأنّ العرب كانوا يقتدون بآبائهم فقال رحمه الله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ الضمير في ﴿لَهُمُ﴾ عائد على كفار العرب، لأن هذا كان وصفهم، وهو الاقتداء بآبائهم»[3]، فيكون المعنى: وإذا قيل لكفار العرب اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أَلفَينَا عَلَيهِ آبَاءَنَا.

(1) تفسير الطبري، ج3/ 304- 305.

(2) تفسير الطبري، ج3 /305.

(3) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، ج2/102، دار الفكر، بيروت، 1420هـ

أما السمين الحلبي فقد وافق قول الطبري ورجَّحه فقال: «قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الضميرُ في ﴿لهم﴾ فيه أربعةُ أقوال أحدُها: أنه يعود على ﴿مَنْ﴾ في قولِهِ: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ البقرة- 165 وهذا بعيدٌ. الثاني: أنه يعودُ على العرب الكفَّار لأنَّ هذا حالُهم. الثالث: أنه يعودُ على اليهودِ لأنَّهم أشدُّ الناس اتِّباعاً لأسلافِهم. الرابعُ: أنه يعودُ على الناسِ في قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الناس﴾البقرة- 68]، قاله الطبري، وهو ظاهرٌ، إلاَّ أنَّ ذلك يكونُ من بابِ الالتفات من الخطابِ إلى الغَيْبَةِ، وحكمتُه أنهم أُبْرِزوا في صورةِ الغائبِ الذي يُتَعَجَّبُ مِنْ فِعْلِهِ، حيث دُعِيَ إلى شريعةِ اللَّهِ والنورِ والهدى فأجابَ باتِّباع شريعةِ أبيه»[1].

تبين لي -والله أعلم- أن الضمير ﴿لهم﴾ يعود إلى الناس الذي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا...﴿١٦٨﴾﴾البقرة: 182

إذ «عدل بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون»[2]. وهو ما ذهب إليه الطبري، لأنه أقرب مذكور.

وأما عود الضمير ﴿لهم﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ كما في قوله تعالى:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا...﴿١٦٥﴾﴾البقرة- 165، فإنه بعيد استبعده كثير من العلماء[3]..

2/ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا.... ﴿١٧٤﴾﴾ البقرة- 174.

موضع الشاهد: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلا﴾

اختلف العلماء في تحديد ضمير «الهاء» في ﴿به﴾ من قوله تعالى:

﴿يشترون به﴾

(1) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، ج2 /226، دار القلم، دمشق.

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ج1 /119، إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ

(3) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /102. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج2 /226.

الإمام الطبري رحمه الله رجح عود الضمير ﴿به﴾ إلى «الكتمان» أي: مِن المصدر المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿يكتمون﴾ فقال رحمه الله: «و«الهاء» التي في ﴿به﴾ مِن ذكر «الكتمان»، فمعناه: ابتاعوا بكتمانهم ما كتموا الناس من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمر نبوَّته ثمنًا قليلا»[1].

يرى ابن عطية أن الضمير يعود إلى الكتاب فقال رحمه الله: «والضمير في ﴿به﴾ عائد على الكِتابِ»[2].

ذكر أبو حيان أقوال العلماء في تعيين عائد الضمير ﴿به﴾ ورجح عوده إلى الاسم الموصول ﴿ما﴾ فقال رحمه الله: «﴿به﴾ الضمير عائد على الكتمان، أو الكتاب، أو على الموصول الذي هو: ﴿ما﴾، أقوال ثلاثة، أظهرها الآخِر، ويكون على حذف مضاف، أي بكتم ما أنزل الله به»[3]. غير أن أبا حيان ذكر فرقا دقيقا بين من جعل عود الضمير إلى الكتمان وبين من أعاده إلى الاسم الموصول ﴿ما﴾ فقال رحمه الله: «والفرق بين هذا القول وقول من جعله عائدا على الكتم، أنه يكون في ذلك القول عائدا على المصدر المفهوم من قوله: ﴿يكتمون﴾، وفي هذا عائدا على ﴿ما﴾ على حذف مضاف، وتقدم الكلام في تفسير قوله: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾[4]، فأغنى عن إعادته، إلا فعل الاشتراء جعل علة هناك، وهنا جعل معطوفا على قوله: ﴿يكتمون﴾، ورتب الخبر على مجموع الأمرين من الكتم والاشتراء، لأن الكتم ليست أسبابه منحصرة في الاشتراء، بل الاشتراء بعض أسبابه. فكتم ما أنزل الله من الكتاب، وهو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنكار نبوته وتبديل صفته، كان لأمور منها

(1) تفسير الطبري، ج3 /328.

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج1/241، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.

(3) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /120.

(4) سورة البقرة الآية79.

البغي ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ البقرة90-، ومنها الخسارة، لكونه من العرب لا منهم»[1].

ذكر السمين الحلبي احتمالات عود ضمير «الهاء» ورجح ما ذهب إليه أبوحيان فقال رحمه الله:« قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ الضميرُ في ﴿به﴾ يُحْتَمَلُ أن يعودَ على ﴿ما﴾ الموصولةِ، وأَنْ يعودَ على الكَتْمِ المفهومِ من قولِه: ﴿يكتمون﴾ وأَنْ يعودَ على الكتابِ، أظهرها أوَّلُها، ويكونُ ذلك على حَذْفِ مضافٍ، أي: يشترون بكَتْمِ ما أَنْزل»[2].

يظهر لي -والله أعلم- أنّ الضمير ﴿به﴾ يعود إلى ﴿ما﴾ الموصولةِ التي في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، لأنه أقرب مذكور، فيكون معنى الكلام إنّ الذين يشترون بكتم ما أنزل الله به ثمنًا قليلاً، ويجوز عوده إلى الكتمان، لأنّ السياق يقتضيه.

3/ قال الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾البقرة- -180 181.

موضع الشاهد: ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾

اختلف أهل العلم في تحديد عائد ضمير «الهاء» في ﴿بَدَّلَهُ﴾ فرجح الطبري عوده إلى محذوف في الكلام يدل عليه السياق وهي الوصية لأنها بمعنى الإيصاء أي: مَن بدّل أمروصية الميت، فقال رحمه: «فإن قال لنا قائل: وعلامَ عادت «الهاء» التي في قوله: ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾؟ قيل: على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، وذلك هو أمر الميت، وإيصاؤه إلى من أوصَى إليه، بما أوصَى به، لمن أوْصَى له، ومعنى الكلام: ﴿كُتب عليكم إذا حَضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا عَلى المتقين﴾، فأوصوا لهم،

(1) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /120.

(2) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج2 /241.

فمن بدَّل ما أوصيتم به لهم بعد ما سَمعكم توصون لَهم، فإنما إثم ما فعل من ذلك عليه دونكم، وإنما قلنا إن «الهاء» في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ عائدة على محذوف من الكلام يدل عليه الظاهرُ، لأن قوله: ﴿كُتب عليكم إذا حَضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرًا الوصية﴾ من قول الله، وأنّ تبديل المبدِّل إنما يكون لوصية الموصِي، فأما أمرُ الله بالوصية فلا يقدر هو ولا غيره أن يبدِّله، فيجوز أن تكون «الهاء» في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ عائده على «الوصية».[1]

أما أبو حيان فرجح عود الضمير ﴿بَدَّلَهُ﴾ إلى الوصية التي بمعنى: الإيصاء، مراعة للمعنى دون اللفظ فقال رحمه الله: « ﴿فمن بدله بعد ما سمعه﴾ الظاهر أن الضمير يعود على الوصية بمعنى الإيصاء، أي: فمن بدل الإيصاء عن وجهه إن كان موافقا للشرع من الأوصياء والشهود بعد ما سمعه سماع تحقق وتثبت، وعوده على الإيصاء أولى من عوده على الوصية، لأن تأنيث الوصية غير حقيقي»[2].

وقيل[3]: ضمير «الهاء» في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ عائدة إلى الفرض، والحكم و الأمر الذي فرضه الله تعالى، فمعنى الكلام: فمن بدل الأمر المقدم ذكره.

وقيل[4]: الضمير يعود على الكَتْب أي: المصدر المفهوم من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾.

يظهر لي -والله أعلم- عود الضمير ﴿بَدَّلَهُ﴾ إلى الوصية التي بمعنى الإيصاء، فيكون المعنى: فمن بدّل الإيصاء عن وجهه -إذا كان لا يخالف الشرع-، فإنما إثمه على الذين يبدلونه.

---

(1) تفسير الطبري، ج3 /396- 397.

(2) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /166.

(3) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /166. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج2 /263.

(4) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج2 /263.

4/ قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ البقرة213-.

موضع الشاهد: ﴿أُوتُوهُ﴾

يرى الطبري أن ضمير «الهاء» في قوله تعالى ﴿أُوتُوهُ﴾ يعود إلى الكتاب الذي أنزله الله بمعنى: وما اختلف فيه إلا الذين أوتوا الكتاب فقال رحمه الله: «و «الهاء» في قوله: ﴿أُوتُوهُ﴾ عائدة على «الكتاب» الذي أنزله الله»[1].

يرى أبو حيان أن الضمير في قوله تعالى: ﴿أُوتُوهُ﴾ يعود إلى ﴿ما﴾ الموصولة التي في قوله تعالى ﴿وما اختلفوا فيه﴾ فقال رحمه الله: «والذي يظهر من سياق الكلام وحسن التركيب أن الضمائر كلها في: ﴿أُوتُوهُ﴾ و﴿فيه﴾ الأولى والثانية، يعود على ﴿ما﴾ الموصولة في قوله: ﴿وما اختلفوا فيه﴾»[2].

ذهب «الزجاج» إلى أن ضمير ﴿أُوتُوهُ﴾ يعود إلى علم نبوة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي ما اختلف في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا الذين أعْطُوا علمَ حَقيقتِهِ»[3].

يرى ابن الجوزي أن ضمير «الهاء» ﴿أُوتُوهُ﴾ تعود إلى الكتاب بلا خلاف، فقال رحمه الله: «فأما «هاء» ﴿أُوتُوهُ﴾ فعائدة على الكتاب من غير خلاف»[4]، والصحيح -والله أعلم- أنه فيه خلاف كما رأينا.

(1) تفسير الطبري، ج4 /281.

(2) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /366.

(3)معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ج1 /284، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

(4) زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج1/ 177.

يتبين لي -والله أعلم- أن الضمير ﴿أُوتُوهُ﴾ يعود إلى ﴿ما﴾ الذي في قوله تعالى:﴿وما اختلفوا فيه﴾، لأنه أقرب مذكور، فيكون معنى الكلام وما اختلف في الاسلام إلا الذين أوتوا الدِّين من بعد ما جاءتهم البينات.

5/ قال الله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ البقرة253-.

موضع الشاهد: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾

يرى الطبري أن ضمير «الهاء» في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ تعود إلى جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا تعود إلى موسى وعيسى عليهما السلام فُهِم ذلك ضمنيا من كلامه رحمه الله فقال: «﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بعدهم﴾ يعني: من بعد الرسل..... وقد قيل: إن «الهاء والميم» في قوله:﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من ذكر موسى وعيسى»[1].

وافق أبوحيان ترجيح الطبري فقال رحمه الله: «﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والضمير عائد على الرسل، وظاهر الكلام أنهم القوم الذين كانوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك، بل المراد: ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ، فلفّ الكلام لفًّا لم يفهمه السّامع وهذا كما تقول: «اشتريت خيلا ثم بعتها»، وإن كنت قد اشتريتها فرسًا فرسًا وبعته، وكذلك هذا، إنما اختلف بعد كل نبيّ»[2].

ذهب قتادة[3] إلى أن ضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعود إلى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

(1) تفسير الطبري، ج5 /380.

(2) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /603.

(3) تفسير الطبري، ج5 /380. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج1/ 288.

ذكر الشوكاني قولا ثالثًا وهو احتمال عود الضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فقال رحمه الله: « قَوْلُهُ: ﴿وَلَو شاءَ اللَّهُ مَا اقتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعدِهِم﴾ أَي: مِن بَعدِ الرُّسُلِ وَقِيلَ: مِن بَعدِ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ، لِأَنَّ الثَّانِي مَذكُورٌ صَرِيحًا، وَالأَوَّلُ وَالثَّالِثُ وَقعَتِ الإِشَارَةُ إِلَيهِمَا بِقَوْلِهِ: مِنهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ»[1]

يظهر لي –والله أعلم- أن الضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعود إلى جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، لظاهر الآية، وهو قول أكثر المفسرين.

6/قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾البقرة264-.

موضع الشاهد: ﴿ فَمَثَلُهُ﴾

يرى الطبري أن ضمير «الهاء» في ﴿فَمَثَلُهُ﴾ تعود على ﴿الذي﴾ أي: الذي ينفق ماله رئاء الناس لأنه أقرب مَذكور فقال رحمه الله : «فمثل هذا الذي ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخرو»الهاء» في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ عائدة على ﴿الذي﴾»[2]، فيكون المعنى: أن الله شبه المانّ المؤذي بالمنافق، وشبّه المنافق بالحجر الأملس الذي عليه تراب فأصابه مطر غزير فجعله صَلْدًا[3].

ذهب إلى هذا القول الإمام أبو حيان وجوز عود الضمير في ﴿فَمَثَلُهُ﴾ إلى الكافر المباهي فقال رحمه الله: «واختلف في الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾

(1) فتح القدير، للشوكاني، ج 1 /309، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ

(2) تفسير الطبري، ج5 /523.

(3) يقال الصلد من الحجارة أي: الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره. ينظر: تفسير الطبري، ج5 /524.

فالظاهر أنه عائد على كالذي ينفق ماله رئاء الناس لقربه منه، ولإفراده ضرب الله لهذا المنافق المرائي، أو الكافر المباهي»[1].

ذكر «السمين الحلبي» احتمال عود الضمير إلى المانّ المؤذي[2] بعدما رجَّح قول القائل بأن الضمير يعود إلى الذي ينفق ماله رئاء الناس فقال رحمه الله:« و»الهاءُ» في ﴿فَمَثَلُهُ﴾ فيها قولان: أظهرهُما: أنها تعودُ على ﴿كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس﴾ لأنه أقربُ مذكورٍ. والثاني: أنها تعودُ على المانّ المؤذِي، كأنه تعالى شَبَّهه بشيئين: بالذي يُنْفِقُ رئَاءَ وبصفوانٍ عليه ترابٌ، ويكونُ قد عَدَلَ من خطابٍ إلى غَيْبه، ومن جمعٍ إلى إفرادٍ»[3].

الذي يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير «الهاء» في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ تعود إلى المانّ المرائي، لأنه أقرب مذكور، وظاهر السياق يقتضيه، وهو اختيار الطبري.

7/ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۖ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ.... ﴿٢٨٢﴾﴾البقرة- 282.

موضع الشاهد: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾

رجح الإمام الطبري عود ضمير «الهاء» في ﴿وَلِيُّهُ﴾ إلى ﴿الحق﴾ أي: صاحب المال في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ فقال رحمه الله:

---

(1) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /663.

(2) هذا القول للضحاك، ينظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ج1 /694، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1999م. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، ج2 /44، دار الفكر، بيروت.

(3) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، ج2 /586.

«فوضع الله جلّ وعز عنهم فرض إملال ذلك، للعلل التي وصفنا -إذا كانت بهم- وعذرهم بترك الإملال من أجلها، وأمرَ عند سقوط فرض ذلك عليهم، وليَّ الحق بإملاله فقال: ﴿فإن كان الذي عليه الحقّ سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليه بالعدل﴾، يعني: وليُّ الحقّ»[1].

أجاز الفرّآء عود ضمير «الهاء» في ﴿وَلِيُّهُ﴾ إلى ﴿الحق﴾ فقال: «﴿فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ يعنى جاهلا ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ صغيرا أو امْرَأَة ﴿أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ يكون عييّا بالإملاء ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ يعني: صاحب الدين، فإن شئت جعلت «الهاء» للذي وليّ الدين، وإن شئت جعلتها للمطلوب، كلُّ ذلك جائز»[2].

رجح ابن قتيبة عود الضمير ﴿وَلِيُّهُ﴾ إلى ﴿**الحق**﴾ أي: صاحب الدَّين فقال رحمه الله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي : وَلِيُّ الحق[3]، فيكون معنى الكلام: «إن عجَزمَن عليه الحقُّ من الإملال، فَيُملل وليُّ الحقّ وصاحبُ الدَّين بالعدل، لأنه أعلمُ بحقِّه»[4].

عقَّب ابن عطية على قول الطبري فقال: «وذهب الطبري إلى أن الضمير في ﴿وَلِيُّهُ﴾ عائد على ﴿**الحق**﴾ وأسند في ذلك عن الربيع وعن ابن عباس، قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي شيء لا يصح عن ابن عباس، وكيف تشهد على البينة على شيء وتدخل مالا في ذمة السفيه بإملاء الذي له الدين؟ هذا شيء ليس في الشريعة، والقول ضعيف إلا أن يريد قائله أن الذي لا يستطيع أَنْ يُمِلَّ بمرضه إذا كان عاجزا عن الإملاء فليمل صاحب

(1) تفسير الطبري، ج6 /58- 59.

(2) معاني القرآن، للفرآء، ج1 /183.

(3) غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، ص99، دار الكتب العلمية، سنة الطبع 1978م.

(4) معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ج1 /393. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ

الحق بالعدل ويسمع الذي عجز، فإذا كمل الإملاء أقر به، وهذا معنى لم تعن الآية إليه، ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يمل بمرض»[1].

أما أبوحيان فيرى أن الضمير في ﴿وَلِيُّهُ﴾ يعود إلى ﴿الذي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يعني: المَدين، وسواء كان المدين ضعيفا أوسفيها أولا يستطيع الإملاءأو نائبا أووليًّا فقال:«﴿فليملل وليه بالعدل﴾ الضمير في ﴿وَلِيُّهُ﴾ عائد على أحد هؤلاء الثلاثة، وهو ﴿الذي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾.... وذهب الطبري إلى أن الضمير في ﴿وَلِيُّهُ﴾ يعود على ﴿الحق﴾، فيكون الولي هو الذي له الحق»[2].

فيما سبق يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير «الهاء» في ﴿وَلِيُّهُ﴾ يعود إلى ﴿الذي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي: المدين، وهو ظاهر السياق، وإليه ذهب جمهور المفسرين، أما ما ذهب إليه الطبري فقد ضعفه العلماء يقول الرازي:« وقال ابن عباس ومقاتل والربيع: المراد بوليه ولي الدين يعني: أن الذي له الدين يملي وهذا بعيد، لأنه كيف يقبل قول المدَّعي، وإن كان قوله معتبرا، فأي حاجة بنا إلى الكتابة والإشهاد»[3]، ويقول الشوكاني:« وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَولِه: ﴿وَلِيُّهُ﴾ يَعُود إِلَى الحَقُّ، وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا»[4].

---

(1) المحرر الوجيزفي تفسيرالكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ج1 /380.

(2) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ج2 /726.

(3) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي ج7 /94، درا إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ

(4) فتح القدير، للشوكاني، ج1 /345، دارابن كثير، ودارالكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ

الخاتمة:

من خلال عرض هذا البحث ظهرت لي بعض النتائج منها:

- ابن جرير الطبري في تفسيره بالمسائل اللغوية كمسألة هاء الضمير الغائب.

-إن الاهتمام بعود الضمير وتحديد عائده يُزيل كثيرا من الإشكال حول التفسير.

-نجد أن ابن جرير الطبري في تفسيره يذكر اختلاف العلماء في تحديد عود الضمير، ثم يرجح ما يراه صوابا إما بقاعدة لغوية أو بالسياق.

- إن اختلاف تحديد عود الضمير في الآيات القرآنية مِن أحد أسباب اختلاف المفسرين.

***المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ
2. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ
3. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
4. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1999م
5. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية.
6. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
7. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.

8. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دارالكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ
9. .سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985م.
10. العين، للخليل بن أحمد، تحقيق: مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
11. غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دارالكتب العلمية، سنة الطبع 1978م.
12. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الاسلامية، الطبعة الأولى، 2002م.
13. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1995م.
14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ
15. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.
16. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دارإحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ
17. معجم البلدان، لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دارالغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
18. معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م.
19. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، درا إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ
20. نتائج الفكر في النحو، لأبي القاسم السُّهيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.